إعجاز القرآن

للدكتور محمد خلف الله أحمد

عميد كلية الآداب بجامعة الإسكندرية

من ميادين العلم التى تجلت فيها العبقرية الإسلامية ميدان إعجاز القرآن ، فقد شغل به العلماء منذ بدء النهضة التأليفية فى القرن الثانى الهجرى ، وانتهت جهودهم فيه — فى القرنين الرابع والخامس — إلى طائفة من أصحاب العقول العظيمة ، الذين عالجوا الموضوع معالجة تخصص واستقصاء وتنظيم .

وموضوع حديثنا علَم آخر من أعلام القرن الرابع عاصر الباقلانى ؛ وطرق مثله مسألة الإعجاز ، ولكنه نهج فيها نهجا أدبيا نقديا ، فاعتبر القرآن ذروة البيان ، وحاول أن يجعل من نقد الكلام العربى . وبيان وجوه البلاغة والفصاحة فيه وسيلة لفهم الإعجاز . ذلك هو أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكرى ، الأديب اللغوى العالم مؤلف كتاب « الصناعتين الكتابة والشعر » وطائفة أخرى من الكتب والرسائل فى اللغة والأدب وتفسير القرآن .

حدد « أبو هلال فى كتاب « الصناعتين » أهم باعث له على تأليفه ، فقال ماخلاصته : إن أحق العلوم بالتعلم — بعد معرفة الله جل ثناؤه — علم البلاغة والفصاحة الذى به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى ، الهادى إلى سبيل الرشد ، والمدلول به على صحة الرسالة . ومن المعلوم أن من أغفل معرفة البلاغة والفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعته ورونق الطلاوة وعذوبتها ، وسهولة الكلم وجزالتها ، إلى غير ذلك من محاسنه التى عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها ، وإنما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه ، وقصورهم عن بلوغ غايته ، وذلك لعمرى نوع من المعرفه لا يليق بالمسلم المثقف . وما دامت المعرفة بصحة النبوة

تتلو المعرفة بالله جل اسمه ، فالعلم الذى يهدى إلى معرفة الإعجاز يجب أن يقدم على سائر العلوم بعد توحيد الله تعالى ، والتصديق بوعده ووعيده ، هذا إلى أن فى دراسة البلاغة العربية صقلا للذوق وعونا على الإبداع وهاديا إلى نقد الكلام ، وقد ألف فيها العلماء من قبل فجاء كلامهم ناقصا وغير منظم ، فرأى أبو هلال أن يعمل كتابه هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه فى صنعة الكلام نثره ونظمه ، ويستعمل فى محاوله ومعقوده .

كانت أول خطوة فى مهمة المؤلف أن يبين عن حقيقة البلاغة ويشرح وجوهها وقد أدار الكلام فى هذا حول تعريف بدأبه ، وهو : « أن البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه ، لتمكنه فى نفسك ، مع صورة مقبولة ومعرض حسن . ثم نقل شطرا من كلام العلماء والحكماء فى الموضوع ولا سيما علماء الهند ، إذ نقل عن بعضهم قوله : « إن البلاغة وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة » ، وشرح ذلك ممثلا لوضوح الدلالة بقول الله سبحانه (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) ، « فهذه دلالة واضحة على أن الله تعالى قادر على إعادة الخلق ، وهى مستغنية بنفسها عن الزيادة فيها ، لأن الإعادة ليست أصعب فى العقول من الإبتداء » ، ثم قال تعالى : (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون) ، « فزادها شرحا وقوة ، لأن من يخرج النار من أجزاء الماء — وهما ضدان ليس بمنكر عليه أن يعيد ما أفناه » ، ثم قال تعالى : (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم !) « فقواها أيضاً وزاد فى شرحها وبلغ بها غاية الإيضاح والتوكيد ، لأن إعادة الخلق ليست بأصعب فى العقول من خلق السموات والأرض ابتداء » .

على هذا الأساس مضى « أبو هلال » فى الأبواب النظرية الأولى من كتابه ، فتناول النواحى التى تميز جيد الكلام من رديئه ، وحلل صنعة الكلام ، وأبان عما

يحقق له حسن السبك وجودة الرصف ، ووضح ما يتطلبه البيان العالى من إيجاز أو إطناب ، وما يستعين به فى تنويع الأداء من تشبيه أو مجاز ، أو مستمدا من القرآن ومن بليغ الكلام نثره وشعره ما يجلوا به تلك التصورات البيانية .

فإذا تكلم عن الإيجاز وجده على أكمل صورة فى قوله تعالى : (ولكم فى القصاص حياة) ، (ومن يتق الله فهو حسبه) ، (ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله) ، (ألا له الخلق والأمر) ، (وله ما سكن فى الليل والنهار) .

و إذا انتقل إلى الإطناب بين أنه محمود فى المواعظ خاصة ، مثل له بقوله تعالى : (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) ، فتكرير ما كرر من الألفاظ هى فى غاية حسن الموقع كما يقول أبو هلال . ومن طريف مايذكره هنا إشارته إلى ما لوحظ فى أسلوب القرآن من أنه إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الأشارة والوحى ، و إذا خاطب « بنى إسرائيل » أوحكى عنهم جعل الكلام مبسوطا ، فما خاطب به أهل مكة قوله : (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) ، وذلك قول يعتمد فى إدراكه على فطانة المخاطبين وحسن إدراكهم ، وقلما تجد قصة لبنى إسرائيل فى القرآن إلا مطولة مشروحة ومكررة فى مواضع معادة ، لبعد فهمهم كان وتأخر معرفتهم .

ويطيل المؤلف الكلام عن التشبيه ، فيذكر أنه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيدا ، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب و العجم عليه ، ولم يستغن أحد منهم عنه ، وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كل جيل ما يستدل به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكل لسان ، وللقرآن فى هذا المثل الأعلى ، ففيه : (وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام) ، (والذين يدعون من دون الله لا يستجيبون لهم

بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه) ، (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) . . . وينقل المؤلف فى هذا الباب كثيرا من تشبيهات صاحب كليلة ودمنة ، وطائفة كبيرة من رائق الأشعار .

وإذ يفرغ أبو هلال من مهمة تحديد المبادىء العامة لنقد الكلام ، ينتقل إلى المهمة الثانية فى كتابه ، وهى تنمية الثروة البديعية التى جمعها « ابن المعتز » فى القرن الثالث فى كتابه « البديع » ، وقد أوصل أبو هلال هذه الأنواع إلى خمسة وثلاثين ، عقد لكل منها فصلا ، شرح فيه ما هيته ، واستدل له بالنماذج القرآنية والأدبية الكثيرة وهذه الأبواب تشمل معظم الأساليب التصويرية التى يستعين بها صاحب الفن الأدبى على تصريف الكلام وتحسينه ، وزيادة تأثيره فى النفوس .

بهذا نجح المؤلف فيما قصد إليه من بيان وجوه الجودة والجمال فى الكلام ، وتمثلها على أتم صورها فى القرآن ، وهكذا كسبت دراسات البيان العربى — بحافز من إعجاز القرآن — كتابا حافلا بالنصوص الجميلة ، وبتمهيد لا بأس به فى بحث طبيعة الجمال الأدبى .

وقد أعان المؤلف على هذا النجاح ثقافته الأدبية واللغوية والشرعية الواسعة ، كما يدل على ذلك تنوع جهوده فى التأليف ، ومحاولته أن يسد بكل مؤلف نقصا بدأ له فى ناحية من نواحى العلم ، فمذ لاحظ قلة الكتب التى عنيت ببيان الفروق اللغوية الدقيقة بين المعانى المتقاربة : كالعلم والمعرفة ! والذكاء والفطنة ، والكذب والإفك ، وغيرها ، أنشأ كتابا سماه بذلك الإسم « الفروق اللغوية » وأدار الكلام فيه على ما يعرض من الفروق فى كتاب الله ، وما يجرى فى ألفاظ الفقها والمتكلمين وسائر محاورات الناس ، وحين رأى قلة الدواوين التى تجمع فنون الأدب المختار فى نظمه ونثره وأخباره ، جمع من هذا مجموعة حافلة منظمة سماها « ديوان المعانى » وقسمها اثنى عشر بابا تتضمن أحسن ما قيل فى وصف الناس والطبيعة وظواهر الحياة .

وإذا كان أبو هلال لم يترك لنا نظرية واضحة فى إعجاز القرآن ، أو بحثا متعمقا فى طبيعة الأدب ، فإن فى الدراسات الإسلامية والأدبية التى خلفها تراثا خصبا جديرا بالإحياء والتقدير .